عَكّا مَدينَةٌ في التّاريخ وَنَصٌّ في الجغرَافيا

معتصم الأطرش

مدخل

سأروي قصة صغيرة عن طالب صغير اسمه معتصم، كان نحيفاً وذكياً. وفي منهاج التاريخ كان هناك درس لطالما انتظره هذا الطالب بفارغ الصبر؛ درس عنوانه "المُعتصم". بدأ الدرس، وكان كلما ذكر المعلم اسم المعتصم تبسم ذلك الطفل واشرأبت عنقه، وكأنه يرجو أن يقول المعلم فقط أن هناك في الصف معتصم، وردد المعلم صفات الخليفة وروى قصة المرأة العربية، ودوت صرخات المعلم في أذن معتصم الصغير وا معتصماه! . . . وا معتصماه! كأنها تناديه، وصرخ معتصم الصغير في نفسه لبيك لبيك، وبينما أنا فخور باسمي، إنه أجمل اسم في الصف! توقف المعلم لحظة، وأكمل مادحاً المعتصم بقوله كان شجاعاً قوياً، يقتل الأسد بين يديه، ثم أشار إلى معتصم الصغير قائلاً: **"المعتصم مش مثل معتصم إللي عندنا بخاف يروح على الحمام في الليل!"**. بنظرات الطلاب نحو معتصم وابتساماتهم الصفراء انطفأت بداخل معتصم كل الشموع، وكره اسمه في تلك اللحظة، لأنه لا يستحقه. طأطأ رأسه مقراً بما قاله المعلم، وأيقن أنه لن يكون مثل المعتصم يوماً ما. توقف حلمه وكأنه تحول إلى كابوس وضاق خياله الواسع حتى كاد يخنقه. لم يعرف المعلم ما الذي فعله بتلك النكتة "الجميلة" التي قابلها معتصم بابتسامة حزينة. ومرت السنين وصديقنا معتصم صار كلما ذكر المعتصم لا يفكر في الشجاعة أو البطولة أو أي شيء، وإنما يؤكد لنفسه أنه يمتلك الشجاعة الكافية للذهاب إلى الحمام ليلاً". اليوم معتصم هو المعلم، ومن خلال تعاونه مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي يحاول أن يحمي طلابه من تهاوي أحلامهم وتحطمها، ولذلك يبني معهم خارطة الوطن على أرض الملعب، ويبني بالنصوص والصور الطريق إلى عكا، ويحاول بكل قوة أن تنتهي التجربة برحلة إلى عكا تمكن الطلاب من قراءة عكا كنص في التاريخ والجغرافيا، وتعيد لمعتصم جزءاً من إيمانه باسمه".

رؤية المشروع

انطلقت فكرة المشروع من تكامل المواد للصف الرابع في اللغة العربية درس (الطريق إلى عكا)، وفي كتاب التربية الوطنية الفصل الأول دروس عدة عن موقع فلسطين وأهميتها وحدودها وتضاريسها.

وحيث أن طلابنا مغيبون تماماً عن معرفة وطنهم، أردت لطلابي أن يتعرفوا إلى فلسطين بشكل مختلف، وأن يحسوا بأن فلسطين التي يتعلمون عنها هي أرضهم التي يسكنون، وأن عكا التي يقرأون عنها هي مدينة تبعد عنهم ساعات، أردتهم أن يتعلموا بهذا المنطق، وحيث هم يتعلمون ويعملون سيمرون بتجارب مختلفة وعميقة تصقل مواهبهم وتنمي مهاراتهم الحياتية، ولغتهم، ومعرفتهم، وانتماءهم. وانطلقت الفكرة في مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وبالتحديد في مكتب الباحث مالك الريماوي.

إن هذا العمل كله كان خارج حدود الصف، ووقت الحصة، والكتاب المقرر، على الرغم من أن الموضوع كان وارداً في الكتاب، وذلك لأن الالتزام بكل ما ذكرت، مع الأخذ بالاعتبار وقت الحصة، والمنهاج، والصف، والمكان، لن يمكنني من عمل أي شيء من كل هذه الأنشطة، وهذا لا يعني أني أدّعي أن مثل هذه الأنشطة لا يمكن صهرها في نظام التعليم التقليدي للأسف! وهذا ما أفكر فيه وأسعى إليه، ولكن التجربة تستحق المحاولة، ويمكن أن أطبق أجزاءً منها مثلاً، المهم هو الاقتناع بالفكرة، وبأسلوب تعليم مختلف نقدمه لأبنائنا، يبدأ من قناعة المعلم بالفكرة، واقتناعه بالتغيير الذي يبدأ من عنده. لقد شعرت أنني قادر على التغيير وإيصال الطلاب إلى مرحلة متقدمة في الحصول على المعلومة، وهذا أقل شيء يمكن أن تقدمه لي فكرة العمل بهذه الطريقة. إن التعامل مع الطلبة بأسلوب جديد مختلف عن التلقين، وحدود الصف، وقيود المنهاج، وكل العراقيل التي يفكر بها المعلم أحياناً، تجعل الطلبة قادرين على البحث والتأمل واتخاذ القرار. إننا، وبكل بساطة، نعلمهم كيف يصيدون السمك، ولا نقدم لهم سمكة جاهزة ما تلبث أن تختفي، ليبقى اعتمادهم علينا في انتظار سمكة جديدة. وهكذا ينشأون معتمدين على الغير، ولن نتمكن يوماً من إحداث التغيير الذي نسعى إليه، ليس في التعليم فحسب، بل في حياتنا بشكل عام، فالموضوع إذاً ليس مشروعاً أو درساً أو حصة فقط، بقدر ما هو فكرة يمكن أن نطورها ونطبقها، فتبني شخصيات أطفالنا بطريقة مختلفة، تؤهلهم للقيادة في مستقبلهم، فهم اليوم أطفال وغداً هم من يمتلكون القرار.

المرحلة الأولى من المشروع

بدأت المرحلة الأولى من المشروع بالجغرافيا (جغرافية فلسطين)، تحت عنوان «فلسطين: حدود وتضاريس ومدن»، واستبدلتُ الخريطة الصماء بالخريطة النابضة في ملعب المدرسة، فقد كنت طالباً قبل سنوات، وحينها تعلمت الجغرافيا على خريطة صمّاء، وكل ما أذكره هو معلومات كنت أكتبها في ورقة الامتحان، وأنساها في اليوم التالي، لأن المعلومات التي كنت أتلقاها كانت بلا روح، لذلك أردت لطلابي أن يدركوا بحواسهم أكثر، وأن أضفي على الجغرافيا بعض الحركة والإحساس بالأرض، والتشويق، فيتحرك الطلاب فوق الأرض، وهم يلعبون ويتعلمون، وقمنا في هذه المرحلة بالأنشطة التالية:

- رسمت خريطة فلسطين على أرض الملعب بطول عشرة أمتار تقريباً ممتدة من الشمال إلى الجنوب، وكنت قد أعددتها قبل وصول الطلاب، وتأكدت من جاهزية المواد والأغراض التي سيستخدمونها.
- خرج الطلاب إلى الخريطة، ووقفوا أمامها، وتعرفوا على الحدود من خلال السير على حدود فلسطين، والانتقال من جهة إلى أخرى. من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وأخذوا يدورون على حواف الخريطة كأنهم ينتقلون من بلد إلى آخر.
- قام الطلاب بوضع التضاريس على الخريطة، وضعوا البحر المتوسط، ثم التضاريس، فوضعوا السهول الساحلية، والمرتفعات، وبنوا جبل الجرمق، والأغوار، والصحراء، حيث كانت كل مجموعة مسؤولة عن وضع جزء من التضاريس. ووقفت طالبتان فوق بحيرة طبريا والبحر الميت، وتوزعت المجموعات فوق التضاريس، ثم تحدثت كل مجموعة عن التضاريس التي أعدتها.
- تركنا الخريطة ودخلنا إلى الصف، وهناك راجعنا ما قمنا به، وتحدث الطلاب عن الخريطة والحدود والتضاريس، ثم كتبنا أسماء المدن على أوراق زينها الطلاب، وحملوا خريطة عليها المدن، وخرجوا إلى الخريطة يحمل كل واحد منهم اسم مدينة، ووقف في مكانه على الخريطة، ورفعوا جميعاً أسماء المدن ورددوها.

لقد حصل الطلاب على تعليم مختلف، فهم لن ينسوا تعاليم الخريطة، لأنهم مشوا فوقها ووضعوا تضاريسها بأيديهم، وهذا مختلف عن وجودهم في الصف، وتلقينهم المعلومات لاستذكارها في الامتحان، وعلى الرغم من الوقت الطويل الذي عمل فيه الطلاب، فإنهم لم يشعروا لحظة بالملل، ولم يطلبوا أي فرصة للراحة، ونسوا حتى تناول الطعام، وكذلك أنا، فقد شعرت حقيقة بفرحة الطلاب ونجاحهم في التعلم بأسلوب مميز.

- عاد الطلاب إلى الصف، وبدأوا العمل في مجموعات، حيث رسمت كل مجموعة خريطة فلسطين على لوحة كبيرة وقاموا بتلوينها.
- حصلت كل مجموعة على قائمة بأسماء الحدود والتضاريس والمدن وأسماء جبال وبحار . . . وقاموا بقصها ولصقها في مكانها على الخريطة بعد أن جفت.
- شاهد الطلاب فلسطين على برنامج "غوغل إيرث" صورة حقيقية.
- قام الطلاب بصنع مجسمات توضح سطح الأرض في فلسطين، ولونوها بألوان التضاريس، بعد أن صنعت أمامهم نموذجاً، وكنت موجوداً لمساعدتهم في أي وقت.
- في حصة قام الطلاب بمراجعة كل ما تعلموه، حيث كان يقوم طالب بدور المعلم، ويشرح عن المجسم كل ما يعرفه عن فلسطين من حدود، وتضاريس، ومدن، وكان الطلاب يناقشون ويسألون بعضهم.

المرحلة الثانية من المشروع

في المرحلة الثانية من المشروع، انتقل الطلاب من الجغرافيا إلى البحث العلمي والتأملات والكتابة والتعبير والمهارات الحياتية. وانطلقت بهم إلى كل ذلك من خلال الدراما، وتحديداً «عباءة الخبير».

كانت الفكرة في البداية أن يعمل الطلاب على مشروع من داخل المشروع عن مدينة عكا، ولكن لظروف صعبة غيرنا فكرة المشروع إلى داخل القرية، حيث عمل الطلاب على البحث في تاريخ القرية وجغرافيتها وسكانها، وذلك عن طريق إنتاج فيلم وثائقي، وسيكون هذا الفيلم مقدمة لفيلم آخر عن مدينة عكا، أو يمكن أن نطور المشروع بطريقة تسمح لبحث مستمر للطلاب عن أي مدينة أو قرية أو موضوع له علاقة بتعلمهم وتطورهم، وبذلك نضمن لمشروعنا الاستمرارية، كما يمكن ضم مجموعة جديدة من الطلاب في كل سنة، سينقل إليهم الطلاب خبراتهم ويعملون معهم. وقمنا في هذه المرحلة بالأنشطة التالية:

- بدأنا الدرس بعرض صور مختلفة وقام الطلاب بالتعليق عليها.
- خرج الطلاب لالتقاط صور تحمل خبراً يريدون إخبارنا به.
- اختيار اسم وشعار للمؤسسة وتصميم الشعار.
- تصميم مكاتب على الورق وشرح التصاميم.
- تصميم المكاتب على الأرض، ووضع كل ما يلزمهم فيها بالرسم والكتابة.
- الاجتماع الرسمي الأول، وتم فيه تعريفهم بأنني مساعد إداري، ووضحت لهم مهمتهم.
- عرض الرسالة التي تتضمن المهمة، وهي تصميم فيلم وثائقي.
- العودة إلى المكاتب لعمل مسودة خطة إنتاج الفيلم.
- بداية جمع المعلومات والتقارير والتدرب على المقابلات.
- تصوير القرية وإجراء المقابلات وعرض التقارير.
- مراجعة نهائية وترتيب مشاهد الفيلم والمادة لبدء التصوير.

بعد إنتاج الفيلم سيكون الطلاب قد حصلوا على مقدار كبير من المعرفة والتجربة والتعلم والعمل الميداني، وأمور كثيرة لا يمكن رصدها في إعداد تقرير، وإنما يمكن استنتاجها أثناء العمل مع الطلاب، حيث يمكن بسهولة ملاحظة التغير الذي وصل إليه الطلاب وهم في طريقهم إلى التعلم بطريقة مختلفة، عما عرفوه، وأهم ما في الموضوع أن الطلاب يتعلمون كيف يتعلمون.

معتصم الأطرش
مدرسة جلجليا الثانوية